الملامح الإنسانيّة في شعر بدر شاكر السياب بين الشّكل والمضمون

المدرس المساعد
عمر إبراهيم سرحان
كليّة التربية _ الجامعة الأمريكية في الإمارات

ملخص البحث

لنا مع الشعر صحبةٌ ممتدة طويلةٌ، وعلاقة حبّ متبادلة، فنحن نشكو إليه آلام الأيام ونوائب الدهور، وهو يبعث فينا نشوة المنتصر الغالب.

لقد دخلَ الشعرُ بما يحملُ من مكانةٍ في نفوسِنا في كل تفاصل حياتِنا وتغلغل فيها ، فباتَ يصور أحلامنا وآمالنا، وأصبح مرآة تعكس طموحاتنا ورؤانا ، إنّه كنز خلّفه لنا الأجداد، شاهدْنا من خلاله مسيرة أمّتنا على اختلاف الأزمنة والعصور، لقد أدركنا به ما كان يتحرك في نفس الشاعر الجاهلي من مشاعر وأحاسيس راودته في تجاربه المختلفة، كما نقل لنا ذلك التغيير الكبير في حياة العرب وهم ينتقلون من عصر الجاهلية إلى الإسلام، ثم يبقى لصيقا بحياتنا في كل العصور حتى عصرنا الحديث.

إ نّ التعقيد الذي أصاب حياتنا في العصر الحديث والهموم التي أحاطتْ بنا بسبب النكبات المختلفة، دفعتْ بالشاعر المعاصر إلى ميدان المواجهة المستمرة مستخدما كل طاقاته الشعرية في سبيل الفوز والخلاص.

ولقد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على أحد روّاد الشعر الحديث في العراق ودوره في التصدي إلى القضايا الإنسانية الكبرى منطلقا من بيئته الصغيرة ، ذلك هو (بدر شاكر السياب) الشاعر الكبير الذي تخطّفته المنيّة سريعاً فلو قدر الله له حياة أطول لخلّف لنا مزيدا من الشعر الذي يحمل عبء الإنسانية وهمومها. وللبحث منهجية تعتمد التركيز على القصائد السيابية التي تصور جانبا من الجوانب الإنسانية المختلفة،ثم تجاوزها إلى النظر لجُهد (السياب) في تقديم تلك المضامين الإنسانية من الناحية الفنية لا سيّما ما يتعلق بالصورة الشعرية ، فمهما تكن المضامين الشعرية التي يسعى الشاعر إلى تقديمها عالية متميّزة تبقى ناقصة إن لم يحسن الشاعر في طريقة عرضها عرضاً فنياً

Humanitarian Features of Badr Shaker Sayyab's Poetry: Form and Content

Instructor
Omar Ibrahim Sarhan
American University in Emirates/ College of Education

Abstract

We are accompanied with poetry long period of time. And we do exchange our feelings and emotions with poetry as we complain to it, and in return it complains to us. It gives us trance of victor.

Poetry penetrates in all detail of our life. Poetry has become to depict our dreams, our hopes, and it is a mirror that reflects our ambitions and views. Poetry is a treasure that we inherited from our grandfathers.

Through poetry we have studied the history and achievements of our ancestors in different times and ages. We have realized how feelings of pre-Islamic poet was at that time and how he or she did think, express his or her thoughts, beliefs and views through the gained experiences.

The toughness of our life nowadays that we face daily pushed the modern poet to continuous confrontation using all his ability to win and defeat his competitors.

Therefore, this research paper attempts to spotlight on one of Iraqi modern leading poets who played a vital role in addressing the major humanitarian issues, starting from his small community, Badr Shaker Al Syabb , a great poet who had passed away at a young age which prevented him from achieving his creativities.

The research depends on a methodology that focuses on the poems of the poet in his writing which tackles part of the poet's humanitarian's concerns. It also dwells on the effort that the poet put in presenting his interests from artistic aspects. However the poem is interesting and distinguished, it does not touch the feeling of the human being if the poet does not interact with its meaning.

مدخل :

لم يكن الشعر العربي في يوم من الأيام زينةً تزيد من ألق الحسناوات وجمالهنَّ ، كما لم يكن أداةً تُقطع به أوقات الفراغ في قصور الأمرآء والخلفاء ، بل كان وما يزال صرخة مكلوم ونفثة مهموم لو بقيت في صدره لقتلته .

إنه صوت الإنسان عندما يحركه الشوق لحبيب طال غيابه أو توارى في التراب ، وحكمة شاعرٍ فِقه الحياة وأسرارها ، وإحساس فنان خط بريشته لوحة الكون الكبير.

هكذا هو الشعر كان وسيكون ضرورة اجتماعية ملحة ، ووسيلة للبوح عمَّا في فكر الإنسان من أراء ومعتقدات ، وعَّما في نفسه من أحلام وطموحات شاء القدرُ أن ترى النور أو لم يشأ .

وقد استطاع الشعراء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، وبيئآتهم وأزمنتهم ، استطاعوا أن يصوروا من خلال شِعرهم الحياة بأحزانها وأفراحها ، ببساطتها وعمقها ، فامتدَّت بذلك آفاق الفكر واتسعت طاقات الخيال .

وفي تراثنا العربي والإسلامي يحتل الشعر مكانةً مرموقةً بين الفنون الأدبية الأخرى ، كيف لا؟! وهو ديوان العرب ، أنيسهم في حلهم وترحالهم ، والسيف المشرع في وجوه أعدائهم ، ودليل أحسابهم وأنسابهم .

يقول عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن فضل الشعر إنَّه ((مجنى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فرق الآداب، والذي قيّد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسّل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين مخلّدة في الباقين، وعقول الأولين مردودة في الآخرين، وترى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والعقل، مناراً مرفوعاً، وعلماً منصوباً، وهادياً مرشداً، ومعلّماً مسدّداً، وتجد فيه للنائي عن طلب المآثر، والزاهد في اكتساب المحامد، داعياً ومحرّضاً، وباعثاً ومحضضاً، ومذكّراً ومعرّفاً، وواعظاً ومثقّفا))[١].

فالجرجاني يرى ببصيرة العالم الفطن ، والناقد الحصيف أنَّ للشعر في باب الفضل منابع مختلفة ،ومسالك شتى ، فإن رمتَ شريف المعاني وجليلها وجدها فيه ، وإن طمحت نفسك لمكارم الأخلاق وبدائع الحِكم وجدتها بين دفتيه ، وإن دفعك الفضول لأخبار الماضين لا يبخل عليك .

كما يُعد الشعر أكبر فنون الأدب ، وأكثرها انتشاراً وتأثيراً في النفوس ، وهو الوعاء الكبير الذي صبَّ فيه الإنسان العربي كل تجارب حياته.

يقول ابن قتيبة في معرض حديثه عن الشعر وما ينطوي عليه من خبرة ومعرفة وحكمة :

((الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام، ومَنْ لم يقم عندهم على شرفه، وما يدعيه لسلفه، من المناقب الكريمة ، والفعال الحميدة، بيت منه ؛ شذَّت مساعيه وإن كانتْ مشهورة، ودرستْ على مرور الأيام وإن كانتْ جساماً، ومن قيَّدها بقوافي الشعر وأوثقها بأوزانه، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها على الدهر، وأخلصها من الجحد، ورفع عنها كيد العدو، وغضَّ عين الحسود))[٢].

وبهذا يكون الشعر حامياً للمناقب وللمآثر من الاندثار والضياع بين يدي حاسدٍ لئيم وعدو لا يرحم .

أمَّا بخصوص فكرة ارتباط الشعر العربي القديم – عند بعض الدارسين – بالجوانب السلبية في الثقافة العربية كالعاطفة والسطحية والسذاجة ، وما يتبعها من افتقاره للعمق الدلالي والبعد الفكري ، فلعلها جاءت من التصورات التي ارتسختْ في أذهانهم وهم يقلبون النظر في آراء النقاد حول الشعر الجاهلي .

فالشعر الجاهلي حسب رأي النقاد يوصف بالمكاشفة والوضح في معانيه وعدم الإغراق في الخيال ، يقول الدكتور شوقي ضيف :((لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنّها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال؛ سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة؛ فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة))[٣].

وإذا كان الشعر الجاهلي بهذه الصفات وهو في نفس الوقت يُعد النموذج الأرقى للشعراء الذين جاءوا بعد هذا العصر، كان لزاماً إذاً أن يتشاركا في الخصائص والسمات.

إنَّ مثل هذه الأفكار لا يمكن أن نطمئن لها بشكل كبير، ففي تراثنا الشعري نجد قصائداً تحمل أفكاراً عميقةً عن الكون والحياة، وصوراً عبر فيها الشعراء عن معاني دقيقة تختبئ خلف ستار النفس البشرية، وإن كانتْ مثل هذا القصائد نادرة في الشعر القديم ولكن ندرتها لا يعني أبدً عدم وجودها .

ومع تطور حركة النقد الحديث وظهور المدارس النقدية ذات الاتجاهات المختلفة ، احتدم النقاش حول قضايا نقدية أثارت اهتمام النقاد على مدى قرون عديدة، كان من ضمنها قضية الالتزام بالشعر، فانقسم النقاد بين من يرى حتمية التزام الشاعر بقضايا مجتمعه المختلفة ، وضرورة أن يوجه الشعر لخدمة الإنسانية والارتقاء بها. فعلى الشاعر أن يتحسس معاناة شعبه في كل مكان وينقلها نقلا صادقا ، وعلى القصيدة أن تكون مرآة تعكس أحلام الناس وتنقل همومهم ومشاكلهم

في حين ذهب القسم الآخر للقول :إن جمال الأدب يكمن في صدق التّجربة التي عاناها الشاعر لذاتها ،وطريقة تناولها ، لا لغاية أخرى ، فإذا استطاع الشاعر من خلال التعبير الجميل المؤثر نقل تجربته للناس ، وجعلهم يشاركونه نفس الأحاسيس والمشاعر التي خالجته ، فقد استطاع أن يحقق غاية ما يسعى إليه العمل الأدبي [٤].

ولا نريد الوقوف طويلا عند هذه القضية ولكن نريد أن نقول : بأنّه كفى بالشاعر أن يعبر تعبيراً صادقا وبصورة موحية عن تجربته الشعورية كي يشار إليه بالبنان ، وحسب القصيدة أن ترينا نبضات مشاعره وأحاسيسه كي تتهافت عليها الأقلام .

ولكنَّ هذا لا يعني في نفس الوقت انفصال الشاعر أو ابتعاده عن قضايا مجتمعه ، وانشغاله عن الخوض فيما يحقق لهم حياة آمنة كريمة .

ككل الشعراء الكبار كان لبدر شاكر السياب أن يتحسّس الجوانب الإنسانية في المكان الذي يعيش فيه ، مستخدما كل براعته وإمكانياته في وصف وتجسيد تلك الجوانب بشخوص وأماكن ورموز تكون هي مركز الظاهرة الإنسانية ، ومن ثم يتسع ذلك المركز لينتقل من دائرة القرية التي عاش فيها الشاعر أعني جيكور إلى دائرة المدينة البصرة وبغداد ثم البلد ألا وهو العراق ثم إلى العالم أجمع، مما يترك انطباعا لدى القارئ لشعر السياب في مختلف قصائده أنّها كانتْ محل همّ إنساني مشترك موضوعا وشخوصا وإشارات.

وفي الصفحات التالية سنتلمس الملامح الإنسانية في قصائد السياب، ثم نرى كيف قدم تلك القصائد من الناحية الفنية لاسيّما ما يتعلق بالصور الشعرية ، فهي أداة الشاعر الأولى في التعبير عن مكنونات نفسه، وتصوير تجربته، وهي ((جوهر الشعر ومحك مقدرة الشاعر، وبواسطتها يتضاعف الشعر مضمونا من ناحية المعاني، ويتكاثف شكلاً من ناحية الأساليب وجودته لغةً وصياغةً))[٥].

الملامح الإنسانيّة في شعر بدر شاكر السياب بين الشّكل والمضمون

ولد السياب في مدينة البصرة إحدى المدن البارزة في العراق والتي تحمل إرثا حضارياً وفكرياً زاهياً ، وفي قرية من قراها تدعى (جيكور)[٦] شبَّ الفتى وترعرع وهو يقتبس منها مشاعل من نور صاحبته حتى الرمق الأخير، وينهل من أهلها حسن الطبع ودماثة الخلق .

ومن جانب آخر لم يكن السياب يملك من الجمال والوسامة ما يجذب به قلوب العذارى فيبادلنه أطراف الغرام، وقد خلّف هذا في نفسه جرحاً كبيراً، وألماً عميقا طالما بثَّه في أشعاره وقصائده. فكانتْ قصائده تعبيرا صادقا عن كل إنسان عانى ما عاناه السياب من تجربة غرام بريئة ذبحتْ بسكين الإعراض والصدود.

ففي قصيدة (أحبيني) يكشف السياب عن خيبة أمله المتكررة، فحبهُ لم يكن إلا وهما سرعان ما تلاشى كالسراب، وهو في نفس الوقت يستعطف من زوجته إقبال شيئاً من الحب والحنان ، طالبا منها أن ترحم قلبا أضناه الصدّ والهجران إذ يقول :

وما من عادتي نكرانُ ماضيّ الذي كانا،
ولكنْ كلّ مَنْ أحببتُ قبلك ما أحبّوني
ولا عطفوا عليَّ، عشقتُ سبعاً كنّ أحياناً
ترفّ شعورهن عليّ، تحملني إلى الصين
سفائن مِن عطور نهودهنّ، أغوص في بحر من الأوهام والوجد
فألتقط المحار أظنّ فيه الدُرّ، ثم تظلني وحدي
جدائل نخلة فرعاء

×××××××

آه هات الحُبَّ روّيني

به، نامي على صدري، أنيميني

على نهديك، أوّاها

من الحُرق التي رضعتْ فؤادي ثمةَ افترست شراييني

أحبّيني

لأني كلُ من أحببت قبلك لم يحبُّوني[٦]

لقد حملتْ تلك الأبيات نغمة إنسانيّة راقية ، وصورتْ مشاعرَ حبيبٍ عفوي كان كغيره من البشر يهفو قلبه لحبيب يجاذبه أحاديث الغرام في ظلام ليل بهيم .

والسياب من الشعراء الذين يحملون ثقافة شعرية واسعة ، ومعجما لغويا غنياً وافراً ، وقد كان يسعى جاهدا في شعره لخلق صورٍ مبتكرة يحطم بها ستار المألوف من الشعر ويُكسب القصيدة عمقا في الدلالة وكثافة في التصوير.وذلك من خلال عقد علاقات جديدة بين أجزاء الصورة التي يتكئ عليها في التعبير عن تجربته من ناحية وإضفاء الغموض على لغته الشعرية من ناحية أخرى . يقول في إحدى قصائده المشهورة :

عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلٍ سَاعَةَ السَّحَرْ،

أو شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنْأَى عَنْهُمَا القَمَرْ .

عَيْنَاكِ حِينَ تَبْسُمَانِ تُورِقُ الكُرُومْ

وَتَرْقُصُ الأَضْوَاءُ ...كَالأَقْمَارِ فِي نَهَرْ

يَرُجُّهُ المِجْدَافُ وَهْنَاً سَاعَةَ السَّحَرْ

كَأَنَّمَا تَنْبُضُ فِي غَوْرَيْهِمَا ، النُّجُومْ ...[٨]

لعل أول ما يلاحظ على تلك الصور الحسيّة المتتالية في المقطع السابق قدرتُها على خلق التوتر الذي يحركُ المشاعر ويثيرُ النفوس، وذلك من خلال الأفعال النابضة بالحيوية والحركة والمتمثلة بالأفعال المضارعة (ينأى، تورقُ، ترقصُ،يرُجُّه، تنبُضُ)، إنّ هذه الأفعال ليستْ لها حدود مكانية محددة ممّا وسعَ أفاقَ الصورة ومجالها،هذا فضلا عن احتفائها بالأشكال والألوان المختلفة والتي نراها في التشبيهات والاستعارات السابقة كقوله (عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلٍ، شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنْأَى عَنْهُمَا القَمَرْ، كَالأَقْمَارِ) إنّ هذه الأشكال والألوان تمثلُ (وسيلةً للشاعر في إحداث التوترات التي

تصاحب التجربة الشعورية بوصفها مثيرات حسية)[٩] من شأنها جذب المتلقي والتأثير فيه. لقد أفاد الشاعر من تأثير الصور البصرية السابقة وطاقتها الإحائية لنقل الكثير من الأفكار والمشاعر المصاحبة للتجربة.

ويستمر السياب في حكاية قصص المظلومين. وفي ظاهرة الفقر تتجلّى النزعة الإنسانية أو النفَس الإنساني عند السياب حيث البؤس والحرمان يعتصرُ الوجوه ويقطّع القلوب.

وقد حاول السياب في أكثر من قصيدة أن يجسّد هذه الظاهرة ويكشف عنها، ومن هذه القصائد قصيدة (المومس العمياء) والتي تعُد بحق من أروع ماكتبه السياب لغة ورمزا وصورا شعرية ومساسا بالهم الإنساني العام،وذلك من أرفع مايمكن أن يقدمه الشعر للإنسانية كفن مرموق يحمل أعباء رسالة كبرى. فالفقر والحرمان يدفعان فتاة القرية البسيطة ومثيلاتهاإلى ممارسة البغاء وهي عمياء لاتبصربعد أن فقدتْ معيلها الوحيد وهو والدها الفلاح القروي حيث غادرتْ إلى المدينة لتمارس البغاء من أجل أن تأكل وتنام فقط .

يقول السياب في هذه القصيدة :

جيف تستّر بالطلاء، يكاد ينكرها من رآها
أنّ الطفولة فجرتّها ذات يوم بالضياء
كالجدول الثرثار– أو أن الصباح رأى خُطاها
في غير هذا الغار تضحكُ للنسائم والسماء
ويكادُ يُنكر أنّ شقا لاحَ من خلل الطلاء
قد كان- حتى قبلَ أعوام من الدم والخطيئه
ثغرا يكركرُ، أو يثرثرُ بالقاصيص البريئه
لأب يعودُ بما استطاعَ من الهدايا في المساء
لأب يقبلُ وجهَ طفلته النديّ أو الجبين
أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء
ما كان يعلم أن ألف فمٍ كبئر دون ماء
ستمصُ من ذاك المحيا كل ماء للحياء
حتى يجفّ على العظام[١٠]

فهل كان عدلاً في عراق الخير أن يحدث كل هذا ؟! براءة طفلة ذبحتْ بسكين شياطين الإنس، قد كانت بالأمس أصفى من الزلال وأنقى من النقاء نفسه ، فاستحالت تحت وطأة الفقر والجوع جسدا خاويا لا روح فيه.

وقد استخدم السياب الرمز والأسطورة في (المومس العمياء) بشكل فيه الكثير من البراعة في التصوير والدقة في الإيحاء والجمال في التوظيف. فهو يدرك إدراكا واعيا ما للأساطير من قيمة فنية كبيرة داخل السياق الشعري فهي تحمل بعدا دلاليا عميقا لا قدرة للألفاظ اللغوية مهما كانتْ قيمتها على بثّه داخل البناء الشعري. إنّ قيمة استخدام الأساطير كما يرى الدكتور على البطل تكمن في إضافتها للجديد من المدلولات وإلا أصبحتْ مجرد زخرفٍ لفظيٍ لا طائلة منه[١١].

يقول السياب:

ستظل_ ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء
تعدو ويتبعها " أبولو" من جديد كالقضاء
وتظل تهمس إذ تكاد يداه أن تتلقفاها
" ابني أغثني" بيد أنك لا تصيخ إلى النداء[١٢]

إن براعة السياب في توظيف الأسطورة في المقطع السابق تجسدتْ في مواءمته بين هذا الرمز الأسطوري وبين تجربته الحديثة داخل الساق، فبعدما كان(أبولو) في الأساطير القديمة رمزا للظلم والقهر والاستبداد حينما حاول أن يغتصب(دافني)[١٣] ها هو اليوم يطلُ علينا بوجه القاسي من خلال تجربة السياب ليمثل ظلم المجتمع وقهره والذي دفع بهؤلاء الفتيات إلى مسالك الشر والرذيلة، وبهذا استطاع الرمز الأسطوري هنا أن يجمع ((بين مغزاه الشعوري العام والمغزى الشعوري الخاص الذي يرتبط ارتباطاً وثيقا بتجربة الشاعر الخاصة))[١٤].

ومن (المومس العمياء) موطن الشقاء والحرمان والفقر الذي يهتك ويزلزل قواعد المجتمع وثوابته الإنسانية، إلى (سفر أيوب) ذلك السفر الذي ضَمَّ بين دفتيه صوراً من الألم والعذابات الإنسانية ، مثلما جمعَ نماذج للرضا والخضوع والصبر على البلوى.

وتحت أنين المرض يتراءى للسياب نبي الله (أيوب) رمزاً إنسانياً خالداً فيندمج معه اندماجاً كلياً - حتى ليصعب علينا التمييز بين الصوتين في داخل القصيدة - ليعبر عن تجربته الشعورية مع

المرض، تلك التجربة العميقة الضاربة في أعماق نفسه والتي يصعب التبعيرعنها إلا عن طريق الإيحاء بالرمز.

فالصورة الرمزية كما يقول الدكتور غنيمي هلال ((تبدأ من الأشياء المادية، على أن يتجاوزها الشاعر، ليعبر عن أثرها العميق في النفس، في البعيد من المناطق اللاشعورية، وهي المناطق الغائمة الغائرة في النفس، ولا ترقى اللغة إلى التعبير عنها إلا عن طريق الإيحاء بالرمز المنوط بالحدس))[١٥].

يقول السياب في مطلع القصيدة :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبدَّ الألم،
لك الحمدُ، إنّ الرزايا عطاء
وإنّ المصيبات بعض الكرم
×××××××
شهور طوال وهذي الجراح
تمزق جنبيّ مثل المُدى
ولا يهدأ الداءُ عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى
ولكنَّ أيوب إن صاح صاح :
لك الحمد، إنّ الرزايا ندى
وإنّ الجراح هدايا الحبيب
أضمّ إلى الصدرباقاتِها،
هداياكَ في خافقي لا تغيب،
هداياكَ مقبولةً، هاتِها ![١٦]

هكذا تبدأ القصيدة بالحمد والثناء على لله ، كيف لا ! والسياب يتحدث إلينا بلسان (أيوب) ذاك النبي الذي علم الدنيا معنى الصبروالثبات مهما استبد الألم ومهما استطال العذاب، والرزايا والمصائب ما هي في نظر الصابرين إلا هدايا من الحبيب تستحق الثناء والتعظيم.

ومهما تعددتْ الرموز في هذه القصيدة يبقى الرمز (أيوب) هو المركز الذي تدور حوله القصيدة بكل أجزائها ، سواءً أطل علينا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

إنّ براعة السياب في استخدام الرموز-كأداة في تشكيل الصورة الشعرية- تأتي من كونه يضفي عليها من موقفه الشعوري وتجربة الخاصة الشيء الكثير؛ لذلك نجد رمز (أيوب) هنا قد ((جمع بين مغزاه الشعوري العام والمغزى الشعوري الخاص الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتجربة الشاعرالخاصة. والتجربة الخاصة بذلك قد أفادتْ من ذلك المغزى العام بقدر ما أضافتْ إليه. وفي هذا يتمثل التعانق الصادق بين الحقيقي وغيرالحقيقي، وهو من أهم ما يميز الرمز الشعري))[١٧].

وتنتهي القصيدة بأبيات تجمع ما بين الأمل بالعودة إلى الديار والخوف من ملاقاة الموت وحتمية المصير إذ يقول :

وأنتَ يا شاعر واديك، أما تؤوبُ
من سفر يطول في الصباح
تُراقص النهر
وتلثم المطر
××××××××××
يا شاعراً يهمُّ بالرواح،
وودّع القمر[١٨]

ونستمر مع السياب (الإنسان) نلتمسُ في شعره ملامح الإنسانية ومواطنها، ونقفُ عند قصيدة من قصائده عنوانها (خلا البيت) وهو عنوان بلا شكّ يكشفُ عن واقع حزين وموقف مظلم، ففي هذه القصيدة جعلنْا السياب نستشعرُ معه مرارةَ فقد الأبناء وما يخلّفهُ ذلك مِنْ ألم وحسرة تعصرُ قلوب الأباء وتهدّ كيانَهم بغض النظر عن قوميتهم وجنسهم ولونهم وأي اعتبارات أخرى.

لقد شاء القدر أن يثقل كاهل السياب مرة أخرى فيختطف منه نسمتين رقيقتين هما(غيلان وغيداء) أيّ بلاء هذا ! رحل النهار برحيلهما واصطبغ الكون بلون السواد. ويغوص السياب في لججٍ من الآهات ليرسم مشهداً إنسانياً حزيناً إذ يقول :

خلا البيت فلا خفقةٌ من نعال

ولا كركرات على السّلم
وأنّت على الباب ريح الشمال
وماتتْ على كرمه المظلم
تلاشتْ خطى موكب الدافنين
ومن مسجد القرية المعتم
تلوكما رفّ فوقَ السفين
شراع حزين
أذان (هو الله باق وزال
عن الأرض إلاه) الله أكبر[١٩]

فعلى الرغم من بساطة الصور الحسيّة التي يحملها النّص، إلا أنها استطاعتْ أنّ تجسد إحساس الشاعر بالألم والحزن في تجربته هذه، فلم تكن تلك الصور الحسية بحركاتها وألوانها وأصواتها بمعزل عن نبض الشاعر وإحساسه وإلا فقدتْ كلّ قيمة فنية تمثلت فيها، فالشاعر ((حين يستخدم الكلمات الحسية وبشتى أنواعها، لا يقصد أن يمثل بها صورة لحشد معيّن من المحسوسات، بل الحقيقة أنه يقصد تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية))[٢٠].

من هنا كان ربط المدركات الحسية بجوهر الشعور سمة تميز الشاعر وتطبع قصائده بطابع الأصالة والابتكار. وهذا ما ذهب إليه العقاد بقوله ((إن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء، وإن كنتْ تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية))[٢١].

وبذلك أخذنا نستشعر نبض الشاعر وإحساسه في كل صورة من صور القصيدة ، نستشعره في خلو البيت من الحركات والأصوات، وفي أنين الرياح وصوت الأذان الحزين .

وعلى ضفاف الخليج ومن عمقه المخيف يُطل علينا السياب حاملاً مرارة الاغتراب ومعبراً عن صراع النفس الإنسانية في غياهب الغربة. ففي قصيدته (غريب على الخليج) يثور السياب كزوبعة إعصار عاتية ليقتلع من نفسه أشجار الهموم والأحزان التي أحاطت به في موطنٍ بعيد إذ يقول:

الريحُ تلهثُ بالهجيرة كالجثام، على الأصيل
وعلى القلوع تظلّ تطوي أو تنشّر للرحيل
زحم الخليج بهنّ مكتدحون جوّابو بحار
من كل حاف نصف عاري
وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريب، يسرّح البصر المحيّر في الخليج
ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج
أعلى من العبّاب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجّر من قرارة نفسي الثكلى : عراق
كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق
والموج يعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما يكون
والبحر دونك يا عراق[٢٢]

إن من دلائل صدق الشاعر في التعبير عن تجربته بغض النظر عن كون المصدر في هذه التجربة مستمداً من الواقع أو الخيال، هو ظهور الإحساس الواحد وطغيان الحالة النفسية الواحدة في كل جزء من أجزاء القصيدة، حتى تبدو القصيدة وكأنها كتلة واحدة لا فجوة فيها.

ينطلق السياب في المقطع السابق ليرسم مشهدا لمعاناة الغرباء عن أوطانهم، جدار من الصمت يعتصر القلوب، ونظرات ازدراء قاسية تلفح الوجوه، وعبارات استرحام كل حرف فيها أثقل من طود عظيم. فحتى الريح التي توصف بالقوة نجدها هنا متعبة تلهث بالهجيرة كالجثام، وهي من شدة ضعفها تبدو عاجزة عن تحريك أشرعة السفن لتعيد الشاعر لموطنه الجميل.

وأمام منظر تزاحم البحارة على شطآن الخليج يجلس السياب حائرا مفكرا بمصيره المجهول فتنتابه مشاعر الحزن والأسى ، وهنا لا يملك الشاعر نفسه فيهدّ أعمدة الضياء بما يصعد من نشيج، نشيج فيه صخب وضجيج هو أعلى من موج البحر وأغزر من الدموع التي تذرفها العيون

الباكية. إنّ الشاعر يحنّ إلى العراق وكذلك الريح العاتية والأمواج العالية ولكنّ العراق بعيد فكيف الوصول ؟

إنّ الصور المتلاحقة التي رأيناها في هذا المقطع تشابكتْ وتآزرتْ في حمل تجربة الشاعر الوجدانية ، وقد أدتْ كل صورة مفردة دورها في السياق الذي وردتْ فيه بشكل فيه الكثير من الحيوية والخصب سواء اعتمد في بنائها السياب على التشبيه أو الاستعارة أو الرموز. كما أنّ الصورة النفسية في هذه الأبيات أشاعتْ مشاعر الألم والحزن والحرمان فإذا بكل كلمة وكل رمز يحمل مع السياب تجربة الضياع بعيدا عن الوطن.

ومن معاناة الناس وآلامهم ، ومن طموحاتهم وأحلامهم، يستمد السياب أفكار قصائده ويرسم بريشة الفنان لوحة شعره فتتعانق الألوان وتتشابك الخطوط لتوحي بعمق التجربة وغزارتها. وعند قصيدته (عرس في القرية) نقف قليلا لنرى قسوة الإنسان والزمان إذا اجتمعا معا. وإن كنا نعتذر لقسوة الزمان فهو لا يفقه أحوالنا ولا يعلم ما يصيبنا من قسوته ، فكيف يمكننا أن نعتذر لمن يفقه كل هذا ويعلمه؟.

يندفع السياب تحت ضغط تجربته ليعبر في هذه القصيدة عن حال تلك الفتاة التي أجبِرتْ على الزواج دون أن يكون لها فيه أدنى اختيار، إنّ معاناة تلك الفتاة البسيطة وآلمها أثارتْ مشاعر السياب وحركتْ أنامله فقال :

مثلما تنفض الريح ذرّ النُضار
عن جناح الفراشة، مات النهار
النهار الطويل
فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلاّ القيل
كان نقرُ الدّرابك منذ الأصيل
يتساقط، مثلَ الثمار،
من رياح تهوّم بين النخيل
يتساقط مثل الدموع
أو كمثل الشرار

إنها ليلة العرس بعد انتظار![٢٣]

ويعُد التشبيه والاستعارة من الأدوات المهمة والفعالة في بنية الصورة الشعرية قديما وحديثا، ووسيلة من وسائل نقل التجربة وتجسيدها، وإن كان شعراء الحداثة قد أدركوا وبشكل أدق وأوضح دور كل منهما في بناء الصورة الفنية، فلم يعد استخدام التشبيه والاستعارة مرتبطاً بالشكل الخارجي وإنما أصبحا عنصرين أساسيين في تشكيل الصورة وإدراكها على حد سواء. ومن هنا ((قد يصل التشبيه أو تصل الاستعارة في بعض الأحيان إلى درجة الخصب والامتلاء والعمق إلى جانب الأصالة والابتداع بحيث تمثل ((الصورة))وتؤدي دورها))[٢٤].

إن التشبيه في المقطع السابق ينقلنا من حالة شعورية إلى حالة شعورية أخرى، فبدلا من أن يكون (نقر الدّنابك) رمزا للفرح والسرور أصبح رمزاً للألم والحزن. وإذا بالشاعر يتخيله بصور شتى فهو يتساقط كثمار النخلة في يوم شديد الريح أو يتساقط كالدمع أو الشرار. إنّ هذا الانتقال كان بفعل الحالة النفسية التي تملكتْ الشاعر أثناء التعبير عن تجربته والتي استدعتْ بدورها تلك الصور المختلفة التي أوحتْ للمتلقي بمرارة هذه التجربة .

فالتشبيه كما قلنا يلعب دوراً كبيرا في الإفصاح عن التجربة ونقلها للآخرين، وقد يتضاعف هذا الدور في حالة تقديم أكثر من تشبيه لحالة واحدة؛ مما يودي إلى اتساع الصورة وتنامي دلالاتها. كما فعل السياب حينما شبه نقر الدّنابك (بتساقط الثمار تارة وبالدموع والشرار تارة أخرى)، فالشاعر في هذه الصور قد جمع بين أشياء غير متجانسة من حيث المكونات ، وهذا ما يعزز جوانب بنية الصورة في الشعر الحر؛ وذلك عن طريق إغنائها بمشاهد غير متشابهة ولكنّها متكاملة[٢٥].

ومن الجوانب المهمة في تشكيل الصورة الفنية بغض النظر عن مصادرها يتمثل في مقدرتها على الإيحاء والتلميح، وجمعها المتناقضات في سياق واحد؛ مما يخلّف توتراً شعورياً يحرك النفس ويثيرها يقول السياب في القصيدة نفسها :

ولو أنّا وآباءنا الأولين
قد كدحنا طول السنين
وادّخرنا على جوع أطفالنا الجائعين
ما اكتسبناه في كدنا من نقود،
ما اشترينا لها خاتما أو سوار!

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرق
من رفات الضحايا مئات اللحود
اشتراها به الصيرفيّ الشقي[٢٦]

إنّ الصورة الرمزية في هذا النص الشعري بما تحمل من كثافة في التصوير وبعد في الدلالات، قد كشفتْ عن تناقض غريب زاد من ألق الصور وجمالها، وأضفى عليها ظلال من الغموض والغرابة. فالخاتم ذو الماسة الزرقاء مثلما كان رمزا للغنى والثراء أصبح في نفس الوقت مقبرة تضم رفات الملايين من البشر الكادحين. وهكذا صار (رمز الخاتم) أداة كشفتْ لنا عن واقع السياب النفسي، وإحساسه الداخلي وهو يعايش تجربته الذاتية.

لقد استطاع السياب كغيره من شعراء الحداثة أن يخلق من العبارات البسيطة والمفردات العادية رموزاً يتكئ عليها في حمل تجربته والتعبير عنها ، وذلك عندما جعل تلك المفردات تعجّ بالإيحاءات وتموج بالدلالات المختلفة بما يتلاءم وطبيعة التجربة الشعورية، ولا فرق في هذا المجال بين كلمة وأخرى ، فكل مفردات اللغة يمكنها أن تستخدم في الشعر ((استخداما رمزياً. ولا تكون هناك كلمة هي أصلح من غيرها لكي تكون رمزاً ، إذ المعول في ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات الحية التي تربط الشيء بغيره من الأشياء))[٢٧].

ونستمر مع السياب في رصدنا للملامح الإنسانية في نصوصه الشعرية، ومع قصيدة (وداع) نقف لنتأمل قوله :

أريقي على ساعدي الدموع
وشدي على صدري المتعب
فهيهات ألا أجوب الظلام
بعيدا إلى ذلك الغيهب
فلا تهمسي / غاب نجم السماء
ففي الليل أكثر من كوكب[٢٨]

إنّ اللغة الشعرية كانتْ وما تزال مما يمتاز به الشعراء فيما بينهم ، وهي وسيلة الشاعر للكشف عن خواطره والتعبير عن أفكاره، ولا يبلغها الشاعر إلا بعد تأمل وبحث واختبار. ((فمهمة الشاعر أن يرتفع

باللغة عن عموميتها ويتحول بها إلى صوت شخصيّ ؛ أن ينظمها من خلال رؤيته وموهبته، في أغنى الأشكال تأثيراً ، مستثمراً دلالاتها وأصواتها وعلاقات بنائها وإيقاعها على نحو فريد))[٢٩].

وقد أدرك السياب إدراكاً واعياً جوهر هذه المهمة، فباتتْ بعض ألفاظه تعبر عن مشهد قائم بذاته. ففي النص السابق يبتدأ السياب بعبارة (أريقي على ساعدي الدموع) هنا تتجسدلوعة الفراق، فراق الزوجة والأولاد والقرية والوطن والذكريات، ولوعة المرض والغربة والفقر يسكبها السياب دفعة واحدة بفعل الأمر أريقي بتصوير رائع لمشهد الوداع الحسي، ولكن تلك الإراقة لاتقف عند حدود الحس المحض بل تتعداه إلى الهم الإنساني الكبير المنضوي تحت كلمة (وداع) بكل ما تعنيه.

ويبدو واضحا من تنكير كلمة (وداع) وهي عنوان القصيدة أن السياب جعلها مفتوحة جامعة لكل وداع ولم يقصرها بالتعريف على حادثة الوداع الحسي الذي وقع معه. ويستمر السياب باستخدام ألفاظ دالة ومجلية للصورة التي يريد رسمها لحالته النفسية من جهة وللهم الإنساني المتواري في خلفية تلك الصورة الحسية الخاصة به، فيستخدم الظلام ومن ثم الغيهب ومن ثم غاب ومن ثم الليل بالترتيب لتكتمل الصورة المأساوية الحزينة مع استخدام لفظة لاتهمسي المكملة لمأساوية المشهد والمنسجمة مع حزن الوداع وظلمة الليل واختناق العبرة في صدر الزوجة إقبال ووحدتها في هذا الوداع.

ويستمر السياب في رسم مشهده الحزين إذ يقول :

وهل كان حلمُ بغير انتهاء
وهل كان لحن بلا آخر ؟
لكي تحسبي أن هذا الغرام
أبيد الرؤى ... خالد الحاضر
وأنّا سنبقى نعد السنين
مواعيد في ظله الدائر ؟[٣٠]

ويبدو من دلالات الألفاظ في المقطع الثاني أن السياب كان يمر بفترة حزن عميق لما أحاط به من الهموم الخاصة والعامة، فجاء تساؤله الاستفهامي والاستنكاري منسجما مع ما أورده في المقطع الأول من ألفاظ ورموز.

وربما حملتْ كلماته تشاؤما واستقراء لنهايات بدَتْ واضحة الملامح دعمها بتكرارأسئلة وألفاظ(انتهاء، آخر،أبيد الرؤى، خالد، نعد السنين) ، الموحية بالحزن المنسجم مع كابة المقطع الأول.

وفي المقطع الثالث ذلك المقطع المثقل بالحزن والهموم كسابقيه ومن خلال ألفاظ وتراكيب دالة على رمزية الوداع المؤلم مثل (ارتماء عميق ، ارجع ، بعيد الصدى كالنجوم، الحجاب ، وتومي ذراعي) . تتشكل صورة من خلال الإيحاء اللفظي والدلالي لما يراه الشاعر في نفسه من حزن وألم، وهو يستنطقه في عيني زوجته وفي ذكرياتهما معا. يقول:

على مقلتيك ارتماء عميق
وذكرى مساء تقول ارجع !
نداء بعيد الصدى كالنجوم
يراها حبيبان في مخدع !
يكاد اشتياقي يهز الحجاب
وتومي ذراعي : هيا معي[٣١]

وبذلك كانتْ اللغة في شعر بدر شاكر السياب لغةً حيةً نابضةً، استطاعتْ أن توصل فيض مشاعره وعمق تجربته للآخرين.

ولرغبة في التّعلم أو لأي سبب آخر ينتقل السياب من الريف إلى المدينة، من الرحابة والصفاء والنقاء إلى الزحام والضجيج حيث الأسواق والطرقات التي تعجّ بالعمال والكادحين، ومن العلاقات التي قوامها المحبة والإخاء إلى علاقات مادية تشوه كل وجه للفضيلة والإباء. في مثل هذه الأجواء الملبدة بالغيوم السوداء يشعر السياب بغير قليل من الخوف والإحباط.

وقد((ذهب كثير من علماء الإجتماع إلى أنّ كثيراً من الإحباطات التي يحس بها ساكن المدينة إنّما هي نتيجة صراع أساسي بين القيم : بين الذات والمجموع، بين الحرية والسلطة، بين التنافس الحاد والمحبة الأخوية، ... الخ، وأن الفرد يحس أن قيماً عزيزة على نفسه قد تحولتْ عن طبيعتها، وفي النفور من هذا الوضع يحاول المرء أن يجد لنفسه مهرباً أو مسرباً، وإذا كان ساكن المدينة يحس بذلك كله فإنّ المهاجر إليها من الريف لا يملك إلا أن يكون إحساسه به حاداً طاغياً))[٣٢].

لذلك لم تعد المدينة في شعر السياب وغيره من الشعراء ممن عانوا تجربة السياب موقعاً جغرافياً محدداً إنما أصبحتْ رمزاً للبوس والإغتراب، ومحطةً للألم والضياع. وقد سلك هولاء الشعراء طرقاً شتى في تصوير المدينة ووصفها، فمنهم منجعلها تغرق في المادية وبذلك جردها من

كل محتوى إنساني، ومنهم من وصف حال الناس في المدينة فإذا هم كأشجار خاوية فُرغتْ أرواحهم من معاني الأخوة والصداقة.

ولقد وصف السياب في أكثر من قصيدة معاناته الإنسانية داخل المدينة (بغداد) ،فهي بدروبها تحاصره من كل مكان ، وجدرانها تكاد تحجُب عينيه فلا يكاد يبصر الأشياء من حوله. يقول في قصيدة (جيكور والمدينة) :

وتلتف حولي دروب المدينه
حبالا من الطين يمضغن قلبي
ويُعطِينَ، عن جمرة، فيه طينه،
حبالا من الناريجلدن عُريَ الحقول الحزينه
ويُحرِقنَ جيكور في قاع روحي
ويزرعنَ فيها رماد الضّغينه[٣٣]

هكذا تآزرتْ الصور في ذلك المقطع لتعبير عن بشاعة إحساس السياب بالمدينة ، إنّها صور تكشف عنف المدينة وقساوتها، فدروبها تحاصر الشاعر من كل مكان، وتتحول إلى حبال من الطين تخنق ذلك القلب وتطفئ ما بيه من جذوة وسعير، وكأني به يرمز بالطين إلى الركود والخمود وبالجمر إلى التوهج والاشتعال، ثم نرى الدروب في صورة أخرى حبالا من النار تجلد تلك الحقول العارية وقد جعلها السياب عارية ليزيد من بشاعة الصورة وقساوتها. وفي الصورة الأخيرة نتحسس أثار ما خلفته المدينة في نفس الشاعر فهي قد شوهت معاني الصفاء والنقاء المتمثل في (جيكور) وأحالتها إلى أحقاد وضغائن.

أما بخصوص المفردات والألفاظ المستخدمة في ذلك المقطع مثل (الحبال، يمضغن، جمرة، نار، عري، يحرقن، الظغينة) أقول إنّ هذه المفردات استطاعتْ في داخل البناء الشعري أن توحي بكثير من القسوة والألم والبوس حتى جاء ذلك منسجماً مع المشهد العام للقصيدة.

يقدم السياب صورةً قاتمة عن (بغداد) صورةً تحمل في تفاصيلها معاناة الإنسان القروي الذي حطمته وفي قصيدة (المبغى)

(المدينة) بقساوتها وجبروتها، إنّها أطفأتْ في قلبه جذوة الحبّ والجمال،وخلخلتْ في نفسه قيم العدل والإخلاص. يقول السياب:

بغداد مبغى كبيرْ
لواحظ المغنّيه
كساعة تتّك في الجدارْ
في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ
يا جثةً على الثرى مستلقيه
الدود فيها موجة من اللهيب والحريرْ
بغداد كابوس (ردى فاسد
يجرعه الراقد
ساعته الأيام أيامه الأعوام والعام نير
العام جُرحُ ناغرُفي الضمير)[٣٤]

وهذا الذي دفع بالسياب إلى النفور من المدينة، فهو ((يخشى من ضياع خطواته في شوارعها الكبيرة، وانسحاقه في الأزقات الضريرة، وخوفه من وحشة الليل، ورعبه من عدم وجود الصديق، أي الاغتراب والعزلة والخوف من الاستسلام للوحدة))[٣٥].

ولعل إمكانيات السياب الفذة، وقدرته العالية في تشخيص الجوانب والأبعاد الإنسانية في شعره؛ جعلتْه في مصافي الشعراء الكبار. فقدرته على التخيل وسمتْ شعره بالعمق في الدلالة والبعد في التصوير،هذا مع ما يمتلكهُ من براعة لغوية أثرتْ نصوصه الشعرية ونأتْ بها عن المباشرة والتقرير.

إنّ تجارب السياب الشعرية على اختلاف أنواعها ومصادرها تترك انطابعاً في النفس يعكس مدى تأثر السياب بتلك التجارب ومقدار انفعاله بها، ويكشف عن رغبته في نقل الإحساس بهذه التجربة إلى الآخرين.وتُعد قصيدة (حفار القبور) من القصائد المهمة التي تدفع بالباحث للتأمل والتّفكر، فهي ملحمة من ملاحم السياب العظيمة كشفتْ في جانب من جوانبها عن واقع أليم وإحساس فظيع عاناه الشاعر في تلك التجربة، إنّها بيّنتْ مرارة العزلة والتهميش التي يعانيها

الفقرآء في مجتمع فقد كل الثوابت والقيم الإنسانية السامية وتنازل في ظل التقدم والتمدن عن مبادئ الحب والتسامح، ممّا جعل الفقرآء يشعرون بالسخط والغضبوالحقد.

ونحن أمام شخصية (حفار القبور) تلك الشخصية الغريبة، نختبر مشاعر مختلفة ومتضاربة، فتارة نشعر بالخوف منه عندما نراه يقول:

وهزّ حفّار القبور
يمناه في وجه السماء، وصاح، ربّ! أما تثور
فتبيدَ نسل العار.. تُحرقُ، بالنجوم المهلكات،
أحفاد عادٍ، باعة الدم والخطايا والدموع؟
ياربُّ مادام الفناء
هو غايةُ الأحياء، فأمرْ يهلكوا هذا المساء!
سأموت من ظمأ وجوع
إن لم يمت هذا المساء إلى غد بعض الأنام؛
فأبعث به قبل الظلام![٣٦]

فهو يدعو الله ويطلب منه أن يثور ليُبيد كل من حوله من البشر نسل العار والخطايا والدموع، لانّ حياته مرهونة بموت الآخرين. ويصل إلى مسامعه حديث عن الحروب وعدد الضحايا فيها، فيتمنى لو أنّها تحل في بلاده فتحيلها خراباً وموتاً.

إذ يقول :

ما زلت أسمع بالحروب
فاين أين هي الحروب ؟
أين السنابك والقنابل والضحايا في الدروب
لأظل أدفنُها وأدفنُها فلا تسع الصاحرى
فأدس في قمم التلالِ عظامهنّ وفي الكهوف![٣٧]

وتارة أخرى قد نتفهّمتلك القسوة على الأنام حينما نعرف بواعثها يقول :

أنا لستُ أحقر من سواي وإن قسوت فلي شفيع
أنّي كوحش في الفلاء

لم أقرأ الكتب الضخام وشافعي ظمأ وجوع
أوما ترى المتحضرين
المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟
مهما أدّنأت فلن أسفّ كما أسفوا لي شفيع
إني نويت ويفعلون وإنّ من يئد البنين
والأمهات ويستحيل دم الشيوخ العاجزين
لأحطَّ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا !
والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور[٣٨]

لقد رسم السياب في الأبيات السابقة صورة حزينة قاتمة لمشاعر أليمة راودته وهو يعاني تلك التجربة القاسية ، ورغم أن الصور السابقة تبدو بسيطة في بنائها التعبيري إلا أنّها استطاعتْ أن تحرك فينا فيضا من المشاعر والأحاسيس. إنها ((أثر الشاعر المفلق الذي يصف المرئيات، وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظرا من مناظر الوجود، والذي يصف (الوجدانيات) وصفاً يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختارة – لشاعر مجيد-))[٣٩].

وليس بخاف على أحد ذلك الدور الكبير الذي لعبه السياب في تطوير القصيدة العربية الحديثة، ولم يكن هذا الدور ليقتصر على شكل القصيدة فقط، بل أن السياب ((قرن الشكل الحديث برؤيا كونية وحضارية جديدة تكشف للشاعر أن الفرد نقطة ماء في بحر الإنسانية، وإن ما يؤديه ليس سوى لبينة يضيفها إلى البناء الحضاري العام، ..... فجاء شعره تعبيرا عن القضايا الحضارية والإنسانية منطلقا من قضاياه الفردية الخاصة))[٤٠].

وتُعد ظاهرة الموت من الظواهر البارزة في شعر السياب، والموت من القضايا الإنسانية الكبرى التي جسدها السياب في شعره، فإن كان الموت قادرا في رأيه على فناء الجسد الإنساني فهو من غير شكّ ليس بقادر على إيقاف مسيرة الروح الإنسانية المتفردة، تلك الروح التي ربطتْ بقاءها بمقدار عطائها الإنساني الكبير، وبهذا أصبح الموت في شعر السياب رمزا للتجدد والانبعاث والخلود.

يقول السياب في قصيدة (المسيح بعد الصلب) :

بعدما أنزلوني ، سمعت الرياح
في نواح طويل تسف النخيل
والخطى وهي تنأى إذن فالجراح
والصليب الذي سمَّروني عليه طوال الأصيلْ
لم تُمتني وأنصتّ كان العويلْ
يعبرالسهل بيني وبين المدينه
مثل حبل يشدّ السفينه
وهي تهوي إلى القاع، كان النواح
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى، في سماء الشتاء الحزينه
ثم تغفو، على ما تُحسّ المدينه
حينما يزهر التوتُ والبرتقالْ
حيث تمتدّ ((جيكور)) حتى حدود الخيال،
حين تخضرُّعشبا يغنّي شذاها
والشمس التي أرضعتها سناها
حين يخضر حتى دجاها[٤١]

وهكذا يبدو السياب كالمسيح وهو يحمل أعباء وأوزار أمّته، وهو بموته قد أحيا مدينته من جديد، إنها تتنفس من خلاله ومن دمه ترتوي أرضها. إنّ تلك الأبيات السابقة عبرتْ عن الصراع الأزلي بين الإنسان وشبح الموت وكشفتْ في الوقت نفسه عن رغبة الإنسان في إثبات وجوده الإنساني الحي المتجدّد.

إنّ براعة السياب في استخدام الرموز كأداة فعّالة في تشكيل وبناء الصورة الحديثة تكمن في قدرته العالية على التشابك والتداخل والانصهار مع هذه الرموز، فالسياب يأخذ من الرمز بقدر ما يعطيه. إنه هنا يتّحد بـ ((شخصية المسيح اتحادا تاماً؛ ففي الوقت الذي يستعير لنفسه بعض ملامح تجربة المسيح، فإنّه يضفي على المسيح بعض ملامح تجربته هو الخاصة، حيث توحّدت الشخصيتان في شخصيّة واحدة، هي السياب/ المسيح ، أو المسيح/ السياب تتكون ملامحها من ملامح الشخصيتين مجتمعةً))[٤٢].

ومن الأنساق التعبيرية التي اعتمد عليها السياب في بناء قصائده الشعرية التكرار، ولا يعد التكرار من ظواهر الشعر الحديث أو المعاصر، فقد برز الحديث عنه وعن دوره في اتساق وانسجام الكلام،وإبراز الدلالات المختلفة في كتب النقاد العرب القدامى

إنّما تطورهذا الأسلوب مع تطور الأساليب الشعرية الحديثة تقول نازك الملائكة: ((جائتنا الفترة التي أعقبتْ الحرب العالمية الثانية بتطور ملحوظ بأساليب التعبير الشعري، وكان التكرار أحد هذه الأساليب فبرز بروزا يلفتُ النظروراح شعرنا المعاصر يتكئ عليه اتكاء يبلغ أحيانا حدودا متطرفة لاتنمّ عن اتزان))[٤٣].

ففي القصيدة السيابية يبرز التكرار عنصرا أساسيا في البناء والتركيب على المستويين الدلالي والصوتي، إنّ الشكل الحديث للقصيدة العربية أفقدها شيئاً من اللحن والنغم وقد أدرك السياب برهافة حسه هذه الثغرة فحاول ترميمها معتمدا التكرار أسلوبا في البناء، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى استطاع السياب من خلاله أن يكشف عن الدلالات الغائمة والمعاني الخفية .

يقول السياب في نفس القصيدة السابقة وهو يتحدث عن (جيكور) :

يلمس الدفء قلبي، فيجري دمي في ثراها

قلبيَ الشمسُ إذ تنبضُ الشمس نورا،

قلبي الأرض، تنبض قمحا، وزهرا، وماء نميرا،

قلبي الماء، قلبي هو السنبل[٤٤]

إنّ التكرار في المقطع السابق (قلبي قلبي- الشمس الشمس- تنبض تنبض) كشف لنا عن شعور السياب ورغبته في الاتحاد بيجكور والفناء فيها من ناحية، كما خلق توازنا موسيقيا جميلا هو أبلغ في استثارة المتلقي والتأثير فيه.

وأرجو أن تكون الصفحات الماضية استطاعتْ أن توصل المراد وتكشف عن براعة شاعرنا (بدر شاكر السياب) في التعامل مع القضايا الإنسانية الكبرى، فالسياب شاعريلتمس المرء في شعره روحا صافية تحمل فرح الناس إذ يفرحون وتعكس همّ المحزون وتفصح عن ألمه إذا عجز يوما عن الإفصاح ع

الهوامش

١-دلائل الإعجاز، عبد القار الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، ط٣، ١٩٩٢، ص١٥-١٦ [١]

٢-عيون الأخبار، ابن قتيبة ، دار الكتاب العربي ، بيروت- لبنان ، المجلد الثاني ، ص١٨٥ [١]

٣-العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٨ ، ص٢١٩ [١]

٤-ينظر قضايا النقد الأدبي ، بدوي طبانة ، دار المريخ ، ١٩٨٤، ص٢٠-٢١ [١]

٥- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨، ص٢٣٣ [١]

٦- ينظر بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، دار الثقافة بيروت_لبنان، ص١٧ [١]

٧- ديوان بدر شاكر السياب ، المجلد الأول ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص٦٣٩_٦٤٢ [١]

٨- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٤٧٤ [١]

٩- الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث(السياب ونازك والبياتي)، محمد علي كندي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٣،ص٢٨ [١]

١٠- ديوان أنشودة المطر، ص٥١٣ [١]

١١- ينظر الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، علي البطل، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢ ،ص٢٥٥ [١]

١٢- ديوان بدر شاكر السياب ص٥١٦ [١]

١٣- الأسطورة اليونانية، تأليف الأب فؤاد جرجي بربارة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتب، دمشق، ٢٠١٤، ص١٢٢ [١]

١٤- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عزالدين اسماعيل، دار الفكر العربي، ط٣، ص٢١٢ [١]

١٥- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٦، ٢٠٠٥، ص٣٩٥ [١]

١٦- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٢٤٨-٢٤٩ [١]

١٧- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عزالدين اسماعيل، ص ٢١٢ [١]

١٨- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٢٧٥-٢٧٦ [١]

١٩- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٦٣٠ [١]

٢٠- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ،عزالدين اسماعيل ، ص ١٣٢ [١]

٢١- الديوان في الأدب والنقد ، عباس العقاد وإبراهيم المازني، دار الشعب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧، ص٢١ [١]

٢٢- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٣١٧-٣١٨ [١]

٢٣- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٣٤٤ [١]

٢٤- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ،عزالدين اسماعيل، ص ١٤٣ [١]

٢٥- ينظر بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث ، رائد وليد جرادات، ، مجلة جامعة دمشق،المجلد ٢٩، ٢٠١٣ [١]

٢٦- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٣٤٥-٣٤٦ [١]

٢٧- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، عزالدين اسماعيل، ، ص١٩٨-١٩٩ [١]

٢٨- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٦ [١]

٢٩- لغة الشعر الحديث في العراق، عدنان حسين العوادي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥، ص٩ [١]

٣٠- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٦ [١]

٣١- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٦-٥٧ [١]

٣٢- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، عالم المعرفة، الكويت، ص٩١ [١]

٣٣- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٤١٤ [١]

٣٤- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٤٤٩-٤٥٠ [١]

٣٥- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، ص٩٤ [١]

٣٦- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٤٦-٥٤٧ [١]

٣٧- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٤٦-٥٤٧ [١]

٣٨- ديوان بدر شاكر السياب ، ص٥٥١-٥٥٢ [١]

٣٩- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٣٧ [١]

٤٠- اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ريتا عوض،ص٢٣ [١]

٤١- ديوان بدر شاكر السياب ،ص٤٥٧-٤٥٨ [١]

٤٢- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، على عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة،١٩٩٧، ص٢٣٣ [١]

٤٣- قضايا الشعر المعاصر، نازك الكلائكة ، ص٢٧٩ [١]

٤٤- ديوان بدر شاكر السياب ،ص٤٥٨ [١]

المصادر والمراجع

١- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، عالم المعرفة، الكويت.

٢- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، على عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة،,١٩٩٧

٣- الأسطورة اليونانية، تأليف الأب فؤاد جرجي بربارة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتب، دمشق، ٢٠١٤

٤- اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ريتا عوض،اطروحة (ماجستير) الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٧٤.

٥- بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، دار الثقافة بيروت_لبنان، ط٤، ١٩٧٨.

٦- بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث ، رائد وليد جرادات، ، مجلة جامعة دمشق،المجلد ٢٩، ,٢٠١٣

٧- الديوان في الأدب والنقد ، عباس العقاد وإبراهيم المازني، دار الشعب، القاهرة، ط٤.

٨- ديوان بدر شاكر السياب ، المجلد الأول ، دار العودة ، بيروت ، ,١٩٧١

٩- دلائل الإعجاز، عبد القار الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٢

١٠_ الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث(السياب ونازك والبياتي)، محمد علي كندي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٣.

١١- الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، علي البطل، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨١.

١٢- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عزالدين اسماعيل، دار الفكر العربي، ط٣.

١٣- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

١٤- العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٨.

١٥- عيون الأخبار، ابن قتيبة ، دار الكتاب العربي ، بيروت- لبنان ، المجلد الثاني.

١٦- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨.

١٧- قضايا النقد الأدبي ، بدوي طبانة ، دار المريخ ، ١٩٨٤.

١٨- لغة الشعر الحديث في العراق، عدنان حسين العوادي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥.

١٩- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٦، ٢٠٠٥.